

« القيم » والنظرية الأدبية

بقلم / د. محمد فكري الجزار (*)

كل مجتمع لا مندوحة له من إبداع منظومة من القواعد العرفية التي تنظم له حركة أفراده، وتضبط تصوراتهم، وتحدد وسائل تحقيقهم لهذه التصورات، فضلاً عن الحكم عليها.

ومن أجل قواعد عرفية تتمتع بكفاءة ذاتية لكل هذه الوظائف، يعتمد المجتمع إلى ثقافته التقليدية يستخلص منها هذه القواعد، الأمر الذي يوفر لها قبولاً بين أفراد هذا المجتمع.

ليست القواعد العرفية - إذن - متعالية عن الأفراد، كما أنها ليست - كذلك - مفارقة لعالمهم، وإنما هي جزء جوهري وأصيل من تكوينهم النفسي ووجودهم الاجتماعي وواقعهم المادي، إنها محض أمثلة - Idialization - لمعطيات ثقافية ترفعها إلى مرتبة «القيمة» التي تمثل سياقاً مثالياً يضمن انسجام التفاعل الاجتماعي بين الأفراد.

إن لمفهوم القيمة Value موقعه المهم في علوم الاجتماع، وعلى وجه التحديد: «الإثنولوجيا» Ethnology التي تحدد «القيمة» بأنها:

أ - الدافع العقدي «الإيديولوجي» الذي يؤثر في أفكار الإنسان وأفعاله (١).

ب - «ارتباط قوي وحتمي بين الكائن الحي وبعض الأهداف والمعايير والأشخاص المعنيين الذين يعتبرون وسائل لإشباع حاجات الكائن» (٢).

ج - «تمثل بؤرة التكامل بالنسبة لأي ثقافة» (٣)..
فبالنسبة للتعريف الأول تلعب «القيمة» دوراً في الدافعية الفردية، أما التعريف الثاني فيلتقط البعد الذرائعي «البراجماتي» للحمة الاجتماعية التي تبنيها «القيمة»، فيما يصب التعريف الثالث اهتمامه على فاعلية «القيمة» ثقافياً، والتعريفات الثلاثة تتضامن فيما بين بعضها البعض لتؤسس مركزية مفهوم القيمة في حياة مجتمع ما نظرياً وعملياً وثقافياً.

ولا تمتلك القيمة هذه المركزية إلا لكونها قارة في أخطر الظواهر الاجتماعية وأوثقها علاقة بالوعي الفردي والوعي الجمعي على السواء، أعني «اللغة»، وإن اللغة هي مسكن

المكونة للقوافي، فسنجد أن حقل الإنسان وأجزائه يحتل حيزاً كبيراً ضمن هذه الوحدات.

(الصغار، المستضعفين، الوتين، الجبين، دمائي) كما أن الصفات (شاحب، هارب، لاهب) هي صفات للإنسان، وما التركيز على حقل الإنسان إلا لكونه هو المقصود بالدعوة إلى أن يغير مواقفه، ويتخلى عن المواقف السلبية: مواقف الذل والخنوع، إلى الموقف الإيجابي: موقف القوة.

وأخيراً نخلص إلى أن القافية في الشعر المعاصر تقوم بوظيفة جمالية موسيقية، وذلك بخلق أجواء إيقاعية متنوعة تبعاً لتنوع القوافي في أنماطها وروبيها وصياغتها الصرفية وحروف مدها، وفي ذلك كله كسر للرتابة التي يخلقها الإيقاع الواحد، إذا امتد على طول القصيدة، وأضف إلى ذلك تلك الدهشة التي يخلقها تجاوز أفق التوقع الإيقاعي لدى المتلقي. وإلى جانب هذه الوظيفة الجمالية تقوم بوظيفة دلالية، حيث تنسجم مع الدلالة العامة للقصيدة، وتكون وسيلة من وسائل تأكيد هذه الدلالة.

الهوامش:

* كلية الآداب - أكادير - المغرب

(١) أمثل هنا بكتاب: «جمالية الأدب الإسلامي» لمحمد إقبال عروي، فقد حل المؤلف قصيدة لحكمت صالح ولم يتطرق نهائياً إلى جانب القافية في القصيدة.

(٢) ديوان «الزمان الجديد» حسن الأمراني، ص ٥٧-٥٩، (ط ١، دار الأمان، الرباط، ١٩٨٨م).

(٣) انظر بخصوص الوقفة التامة والوقفة الناقصة كتاب: «ظاهرة الشعر المعاصر بالمغرب» لمحمد بنيس، ص ٥٢ وما بعدها، (ط ١، دار العودة، بيروت، ١٩٧٩م).

(٤) يقصد بالتدوير في الشعر القديم أن تكون الكلمة مقسومة بين شطري البيت، بينما يقصد بالتدوير في الشعر الحديث أن تكون التفعيلة مقسومة بين سطرين، فيكون الجزء الأول منها في نهاية السطر والجزء الآخر في أول السطر الذي يليه.

(٥) موسيقى الشعر العربي، شكري عياد، ص ٨٩ - ٩٠، (أصدقاء الكتاب للنشر والتوزيع ب.ت.).

(٦) انظر «عيوب القافية» في: «فن التقطيع الشعري والقافية» لصفاء خلوصي، ص ٢٧٦، وما بعدها، (ط ٥، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٧٧م).

(٧) نظرية الأدب، رونيه ويليك وأوستين وارين، ترجمة محيي الدين صبحي، ص ١٦٧، (ط ٣، الدار البيضاء، ١٩٨٥م).

(٨) المصدر نفسه، ن.ص.

● عندما يتوسع مفهوم الأدب ليشمل المؤلف والقارئ معاً!!

● مجتمعاتنا الإسلامية لها قيمها.. وعلينا اعتبار ذلك عند استقبال أي واد..

مرجعية

انتباهية

■ نموذج الوظائف: تعبيرية ————— إفهامية

شعرية

ماوراء اللغة^(٥)

وأول ما يجب الالتفات إليه أن «ياكوبسون» تعتمد خطأين في نمودجه للاتصال، تمكن بفضلهما من إقرار نمودج الوظائف.

الخطأ الأول: أن نمودجه للاتصال نمودج سكوني لا اعتبار فيه لعنصر الزمن، وهو يتابع في هذا، خطى الألسنية السوسيرية، أي البنيوية، على الرغم من أن غاية هذه الألسنية غاية تسمح بالتجريد، بينما يختلف التفاعل اللغوي/الاتصال اختلافاً جذرياً بما يمنع أي تجريد، وسيلة كان أو غاية، عن فهمه..

الخطأ الثاني: أنه وضع «المرسلة» عنصراً غير متميز، على وجه الإطلاق من بقية العناصر، بالرغم من أن وجودها هو علامة الاتصال الوحيدة، فيوجد بوجودها وينتفي بانتفائها، كما أن وجودها علامة على مرسلها وإن غاب، كما هو الحال في «الكتابة» وعلى المرسلة إليه، وإن لم يحضر بعد كما في الحال نفسها..

وقد تمكن «ياكوبسون» بفضل هذين الخطأين من إقامة نمودج الوظائف الست بالشكل التجريدي السابق، ووجد في مفهوم «الوظيفة المهمة» مخرجاً من تورطاته العديدة التي لا مجال لذكرها هنا^(٦).

كان «ياكوبسون» ينطلق من رغبة عقلية في دراسة «الشعرية» - وظيفة المرسلة - دراسة ألسنية مجردة، ينتفي منها أثر الزمن، ولا تقييم اعتباراً لفعل الذات، بينما الواقع يؤكد على أن «المرسلة» إن هي إلا لحظة زمنية لها ما قبلها المؤسس لها، تماماً كما أن لها ما بعدها المستوعب لها، والذات قائمة فيها قيامها قبلها وبعدها.

إن «المرسل» ليس ذاتاً، وإنما وظيفة تقوم بها الذات، وكل وظيفة فإن لها غايتها المصوغة «مرسلة» ووحدها هذه الغائية تدفع ذاتاً أخرى للقيام بالوظيفة المقابلة للإرسال أعني الاستقبال، هذا اللقاء بين الذاتين على قاعدة المرسلة وغايتها يمتلك تاريخاً اجتماعياً تحكمه «القيمة»، وحالة المرسلة الأربية لا



■ القواعد العرفية هي جزء جوهري وأصيل

من التكوين النفسي للفرد.

القيمة الوحيد، ومن ثم تنطوي كل لغة على حقل دلالي - Semantic Field - قيمي يتداخل تداخلاً مؤثراً في كل حقول اللغة الدلالية، بشكل يجعل من الحقل القيمي سياقاً فاعلاً في كل اتصال لغوي.

والسياق Context مصطلح على قدر كبير من الأهمية في كل اتصال لغوي، فعليه - سواء كان سياقاً خارجياً أم كان سياقاً داخلياً - يتوقف معنى الكلمة كما يذهب أصحاب النظرية السياقية^(٤)، ولا شيء كالقيمة يوجد في السياق الخارجي كما يوجد في السياق الداخلي اللغوي، إذ إن لها حالتها وجود، الأولى: حالة اجتماعية قبل اتصالية ينتظم فيها جميع أفراد مجتمع ما، فهي - إذن - مكون أصيل من مكونات سياق الموقف، والثانية: حالة لغوية قائمة بالقوة أو بالفعل في كل مرسلة لغوية سواء هبطت إلى ثرى معيارية اللغة أو حلقت في آفاق شعريتها. فالمنظومة القيمية - بهذا التصور - تمثل مرجعية لا يمكن غض النظر التحليلي المنهجي عنها في مقارنة المرسلات اللغوية على الرغم من اختلافاتها النوعية وتنوعاتها الأسلوبية، وقد لا نبالغ إذا ما ذهبنا إلى القول بأن نوع المرسلة وأسلوبها - باعتبارهما اختياريين اتصاليين - لا يخلوان من حضور «القيمة» حضوراً مؤثراً في كليهما، وفي هذا الصدد فإن نمودج الاتصال اللغوي ووظائفه الست - عند «رومان ياكوبسون» بحاجة إلى ما سكت عنه الرجل نفياً له متخوفاً على غاياته من أن تهدرها مقدماته..

سياق

قناة

■ نموذج الاتصال: مرسل ————— مرسل إليه

مرسلة

سنن